من خلال نصوص النقوش اللاتينية

د. بن عبد المومن محمد
كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية
– جامعة وهران–

(لا يوجد ملخص ولا ترجمة لذلك ولا كلمات مفتاحية)

يبقى تاريخ المغرب القديم في حاجة إلى المزيد من الدراسات الاجتماعية عامة وعن المرأة خاصة، إذ يلاحظ تغييبا لتاريخها أثناء الفترة القديمة، فغالبا ما نجد إشارات عنها ضمن الدراسات العامة، وربما يعود السبب لقلّة المادة التاريخية الخاصة بتاريخ المرأة، أو لأن المجتمع أثناء تلك الفترة كان ذكوريا يؤرخ لسير الرجال من قادة عسكريين وسياسيين وأدباء، أو لتفرق الإشارات عنها عرضا عند الحديث عن الرجل أو الأسرة.

وللوصول إلى جوانب من حياتها أثناء الفترة القديمة، وما تكبدته من مشاق لأجل أسرتها، ومساندة زوجها في شغله، لزم الأمر مراجعة محتوى نصوص النقوش الجنائزية، لأن المعلومات الواردة ضمنها تميط بعضا من حقيقة واقعها، لأن عادة البشر لا تميل إلى ذكر سلبيات الأموات، بل كانوا يقيمون لهم الطقوس الجنائزية اللازمة من دفن، ومآدب جنائزية، وتقديم القرابين، ومختلف الطقوس والشعائر لتسكين أرواحهم، لكي لا تقلقهم، وتعكّر صفو حياتهم، حسب اعتقادهم.

ولذا تم التعويل على هذا النوع من المصادر لأهميته في الكشف عن جوانب من مسار حياة المرأة المغاربية في العصور القديمة، فمن حسن الطالع أن هذه النقوش الجنائزية رصدت مجموعة أسماء لنساء لعبن أدوارا في حياتهن الأسروية والإجتماعية، وذلك عبر فضاء جغرافي يمتد من (**فوليبيليس-Volubilis**– واليلي– إلى قرطاجة– **Carthage**).

تشير محتويات العديد من النقوش الجنائزية بمدن بلاد المغرب القديم لشهادات لشهادات أشادت بالمرأة داخل خلية الأسرة والمجتمع المغاربي القديم وذلك من خلال

خلال ما سطّر عنها من عبارات المجاملة، والفضائل، والأخلاق المثالية، ودورها الاجتماعي، والمهني أثناء مرحلة الاحتلال الروماني لبلاد المغرب القديم، حيث وردت ضمن نصوص النصب الجنائزية المنتقاة لهذا الغرض، والمهداة لها بعد موتها من طرف افراد عائلتها، خاصة زوجها الذي نجده في الكثير من الحالات يتباهى بمناقبها لأنها كانت مفتاح سعادته، ونجاحه الأسري، والمهني، كما مكّنتها صفاتها المثالية، وأخلاقها الرفيعة من بلوغ العالم الآخر بعد موتها.

وردت ضمن سجلات النقوش اللاتينية الخاصة ببلاد المغرب القديم مجموعة من النصوص تشير لشهادات واضحة ومميزة للأزواج عن إخلاص ووفاء زوجاتهن، وتفانيهن في خدمة الأسرة على الرغم من صغر سنهن، وحداثة تجربتهن الزوجية، حيث ساهمت المرأة بشكل خاص في حسن تدبيرها لشؤون بيتها، فكانت مقتصدة في حياتها مثلما أشارت إليه النقوش بالعديد من مدن بلاد المغرب القديم، نذكر منها إشارة (ماغني– **Magni**) من مدينة (أمايدرة) التونسية لزوجته (كاسترا– **Castra**) التي كانت مقتصدة وسعيدة في حياتها معه (**Quae uixit semper parce**)[1].

كما تضمنت محتويات بعض النقوش لمجموعة من المعطيات تفيد أن المرأة ساهمت في مساعدة زوجها مهنيا، وتنقلت معه في رحلاته التجارية خارج حدود المدينة وأحيان أخرى خارج المقاطعة، إذ لعبت دورا في زيادة ثروته، بحرصها وحكمتها ونصائحها، واقتصادها في تدبير شؤون بيتها، فكانت مستشارته، في حين أن الحظ لم يسعف البعض منهن إما عند بقائهن بدون زواج، وبالتالي حرمن من شعور الأمومة، أو عند موتهن بعد وضعهن لمواليد، لكن شهادات الزوج لزوجته تمنح لنا صورة إيجابية عن مكانتها داخل خلية الأسرة، والمودة التي كانت سائدة بين أعضائها اثناء مرحلة تاريخية من تاريخ بلاد المغرب القديم، إذ احتوت مضامين بعض النقوش على صفات الإخلاص التي نعتت بها المرأة مثل نقيشة (سبراتة – **Sabratha**)[2] التي تضمن محتواها وصفا لشهادة زوج (كايلستينا– **Caelistina**) التي كانت من ساكنة هذه المدينة لإخلاصها، ووفائها له ضمن النص التالي:

(... إخلاصك العفيف الذي جعل من قلبك وفيا لزوجك... سُمعتك وفضائلك أبكت العائلة لفرقاك، وكل اللواتي كن معجبات بك...)[3] ، من خلال هذا الوصف يستخلص أنّ هذه الزوجة المثالية قد امتلكت كل صفات الإخلاص لزوجها، ولأسرتها من خلال العبارات التي نقش على شاهد قبرها مثل:(الطاهرة– **Castitas**)، و(المؤمنة–**Fides**)، و(الخجولة–**Pudor**)، و(غير مزعجة – **Innocuitas**)، ثم يذكر أن أخلاق زوجته المثالية والحسنة فتحت لها أبواب السماء بعد موتها، وجعلت منها أنموذج المرأة التي يقتدى بها بين قريناتها، كما تضمن محتواها إشارة لموضوع الإنتصار على الموت، وبلوغ العالم الآخر بواسطة التحلي بفضائل الاخلاق: **(seruat tua fama pudorem, exuperans mortis legem cum durat in aebum)**[4].

تعددت النقوش التي أشادت إلى أخلاق وعفة المرأة وذلك بذكر مناقبها المرأة بعد موتها، فها هي امرأة من (حضرموتوم–**Hadrumetum**) – سوسة –، تدعى (أوزيبيا – **Eusebia**) ينعيها زوجها (سكسوس – **Successus**) ويصفها بالمرأة المثالية، ويطلب من كل من عرفها بأن يتذكرها، والدعاء لها أثناء الصلاة[5].

لم تكن الإشادة بخصالها، وعطفها من طرف الزوج لوحده، بل شارك في ذلك الأبناء والوالدين، وحتى المعتوقين من العبيد، مثلما كشفت عنه نصوصا لنماذج من النقوش بمدن بلاد المغرب القديم، فالإهداء الذي تقدمت به معتقة من ساكنة (واليلي– **Volubilis**)، المدعوة (نانا – **Nana**) لسيدتها العطوفة (ايليا موريليا – **Aelia Maurellia**) التي عاشت **70** سنة[6].

وكان التواضع والتقوى وحب العائلة إحدى خصوصيات المرأة المغاربية القديمة، حيث تذكر لنا نقيشة مدينة (ماكثريس – **Mactaris**)[7] – مكثر– بتونس، أن (باليا ساتورنينا – **Pallia Saturnina**) تميزت بهذه الخصال، ولم تطلب من زوجها (يوليوس مكسيموس – **Julius Maximus**) سوى الضروريات التي تحتاجها المرأة لزينتها، فكانت مقتصدة في حياتها، عاشت بكل بساطة، ولم يرافقها العبيد عندما كانت تخرج للتبضّع.

وردت إلينا إشارات من النقوش الجنائزية تبيّن لنا أن المتوفية تتكلم بلسان حالها عن تفانيها وإخلاصها في خدمة أسرتها، وسلوكها الرفيع الواجب اتباعه لبلوغ العالم الآخر، مثل المرأة النوميدية (بلانكينا –**Plancina**) التي سكنت (سيكا فنيريا– **Sicca Veneria**) [8] – الكاف– بتونس، إذ تتكلم على نفسها بأنها كانت من سلالة ملكية، وأنها كانت أم، وزوجة جيدة.

وفي السياق نفسه تبرز إحدى النقوش الجنائزية بـ.:(قيصرية– **Caesarea**) [9]– شرشال – عاصمة مقاطعة موريطانيا القيصرية، بلسان حال المرأة المتوفية تأسف الزوجة (بلاندوس – **Blandus**) لموتها الذي أخد منها الأمل، وحرمها من ولد كثمرة لزواجها، وتطلب من زوجها أن يتذكرها، ويقوم بتشريف الآلهة (مان– **Manes**)[10].

والملاحظ أن كتابة النقوش الجنائزية لم تقتصر بلسان حال النسوة ذوات الجاه، بل شمل ايضا عبيدهم، إذ تكشف لنا نقيشة (قرطاجة– **Carthage**) [11] أن العبدة الإمبراطورية (سيفيرا – **Severa**) عاشت حياة مستقيمة، شكرت زوجها الذي لم يبخل عليها بشيء في حياتها، ثم تقدم النصائح لكل امرأة محترمة بإمكانها أن تعيش بكل عفة، وأن تصبح محبوبة إذا سارت على مبادئ الوفاء التي اتبعتها طيلة حياتها [12] .

لم يقتصر عمل المرأة على خدمة زوجها وعائلتها بل تعدى ذلك إلى مشاركتها في الأعمال المهنية لزوجها مثلما يشير إلى ذلك محتوى نص نقيشة (هنشير صومعة العمرة – **Hr. Soummet el –Amra**) [13]غرب تونس [14]، إذ يشيد (لوكيوس – **Lucius**) بزوجته (أوربانيا – **Urbanilla**) التي رافقته في رحلاته التجارية، موضحا حرصها القوي في الحفاظ على ثروته، واهتمامها بالأسرة، زيادة لحكمتها التي ساندته بها دوما، ثم يبيّن حسرته على فقدانها، لكن المستخلص من هذا النص أن المرأة كانت شريكة الرجل في أعماله المهنية، وبالتالي يمكن منحها هي الأخرى لقب صاحبة أعمال [15].

لم يقتصر دورها عند هذا الحدّ بل تعدى إلى المساهمة في ثراء الزوج وإخراجه من الفقر الذي كان فيه، وذلك ما نستشفّه من نص نقيشة (ثيبيليس–

Thibilis)– عنونة–[16]، عندما تذكر الزوجة أنها عاشت 45 سنة في احترام وطاعة زوجها، وأنها ساهمت في نمو ثروته المالية.

يلاحظ من محتويات بعض النقوش الجنائزية المهداة للمرأة التي عثر عليها بالعديد من مدن بلاد المغرب القديم عن عدم وجود إشارة لاسم الزوج أو الأبناء عند ذكر صاحب الإهداء المقدم على شرف المرأة، والاكتفاء في العديد من الحالات بذكر والديها، أو إخوتها الذين تقدموا بإهداء لابنتهم أو أختهم، مثلما هو الشأن بالنسبة ل. : (باسينا – **Passena**) من مدينة (أمايدرة – **Ammaedara**)[17]– حيدرة– بتونس، والتي عاشت خمسة وأربعون سنة في ورع وسخاء، مما يدفعنا للإستنتاج أنّ هذه المرأة في هذا السن بحكمتها ونصائحها لم تكن متزوجة[18]، وهي إشارة واضحة لوجود حالات العنوسة بين النسوة داخل الأسر المغاربية أثناء الفترات التاريخية القديمة.

تواجدت عكس هذه الحالة إشارات الزواج المبكر للنساء الذي كان منتشرا بين سكان بلاد المغرب القديم، مثلما نستخلصه من نص نقيشة (هيبو رجيوس – **Hippo Regius**) – عنابة–، إشارة تدلنا على تأكيد بلوغ سن الزواج إلى إثني عشرة سنة عندما تأسف والد الطفلة (كونستنتينا – **Constantina**) عن موت ابنته التي لم تبلغ بعد سن الإثني عشرة سنة بقوله :(... لا تبكون لضياع الطفلة – كونستنتينا– اللطيفة الجميلة، التي لم تبلغ بعد 12 سنة .... والتي كانت مؤهلة للزواج...)[19]. ومن خلال نص نقيشة عثر عليها بـ :(حضرموتوم)[20] تضمن محتواها إهداء تقدّم به الزوج (فابيوس إكسوبرانتوس - **Fabius Exsuperantus**) لزوجته (يوليا فيليا لوكيا – **Julia Filia Lucilla**) الذي عقد قرانه معها وعمرها ثلاثة عشر سنة، عاشت معه أربعة عشر سنة وخمسة أشهر، ثم يشيد بإخلاصها وتفانيها في أداء واجباتها الأسرية[21].

وفي السياق نفسه وردت إلينا إشارة أخرى عن سن الزواج المبكر الذي بلغ خمسة عشر سنة ل.: (أنيا فركتوزا – **Ennia Fructuosa**) من ضواحي مدينة (لامبايزيس– **Lambaesis**) – تازولت – عندما تزوجت بـ.: (أيليوس

بروكولينوس – Aelius Proculinus) الذي كان يشغل رتبة عسكرية ضمن (فيلق أوغسطس الثالثة– III^e legio d'Auguste)[22].

إذا كان زواج المرأة في سن مبكرة، يلاحظ في بعض الحالات أنها عمرت كثيرا مثلما يبينه نص نقيشة (كيرتا– Cirta)[23] – قسنطينة–، الذي يشير لـ:(أومبريا ماترونيكا– Umbria Matronica)، التي شغلت وظيفة كاهنة عندما كان سنها 35 سنة، واستمرت في الخدمة 80 مدة سنة (Octoginta etiam…seruiui)، و توفيت عند بلوغها 115 سنة (Vixit annis CXV…)[24]، فتأخر سن الوفاة يمكن إرجاعه لظروف معيشتها الجيدة التي أثرت بالإيجاب على صحتها، ولا يتأتّى لها البقاء في الوظيفة طيلة هذه المدة، إلاّ إذا كانت كانت السلطة راضية عنها، أو أنها تكون قد لقيت رضا من أتباع المعبد، الذي كانت ترعى آلهته[25]. وبالمثل ورد إلينا نص نقيشة [26] يمثّل إهداء (يوليوس سكوندوس – Julius Secundus) من فئة أشراف مدينة (قيصرية– Caesarea)– شرشال–، الذي كان اسمه العائلي متداولا بكثرة داخلها[27] تقدم به لزوجته (روبيا فيستا – Rubia Fusta) التي عاشت 36 سنة و40 يوما، ويحتمل انها من فئة (الكاهنات) نتيجة ورود ضمن محتوى نصها أوصافا تتعلّق بالسلك الكهنوتي، كالعصيبة الذهبية (Aurea uitta)، وتاج مقاطعة موريطانيا (Corona Mauricae prouincae)، مما يرجح أنها كانت تنتمي لهذا السلك بذات المقاطعة[28] ، ويشير محتواها لموت زوجته بعد ثلاثة أيام من ولادة طفلها العاشر، ثم يبين لنا أن خمسة منهم بقوا على قيد الحياة، الذين أرضعتهم بنفسها (Quinque natos lacte mater)[29]، مما يوحي لاهتمامها المباشر بأبنائها على الرغم من وضعيتها الإجتماعية ووظيفتها، والمكانة الإجتماعية لزوجها الذي ينتمي لطبقة أشراف المدينة، ففي مثل حالة هذه العائلة، غالبا ما كان يعتمد على المربيات للاعتناء بالأطفال، الأمر الذي لم يمنع (روبيا فيستا) من رعاية أطفالها بنفسها[30].

كما وجدت إشارات ضمن نقوش مدينة (فوليبيليس– Volubilis) – واليلي –، بمقاطعة موريطانيا الطنجية عن امرأة عاشت 100سنة [31]، بينما تعددت حالات الوفاة ما بين الثمانين والتسعين سنة مثلما نجده عند (يوليا مودستا بنيناتا–

Julia Modesta Benenata) من مدينة (مكثاريس–Mactaris) التي ماتت عن عمر يناهز **83** سنة و**10** أشهر[32]، وشمل هذا التعمير حتى المعتوقين من العبيد مثلما هو الشأن بالنسبة لـ: (كانينيا روفا – Caninia Rufa) معتقة (لوكيوس – Lucius) عاشت **80** سنة [33]، مما يدل أن متوسط عمر الإنسان والمرأة بالأخص – موضوع دراستنا – كان مرتفعا بينهن، في حين تبقى نسبة الوفيات مرتفعة بين الأطفال، إذا ما اعتمدنا على نص نقيشة (قيصرية)، فمن بين **10** أطفال الذين أنجبتهم (روبيا فيستا – Rubia Fusta) لم يعش منهم سوى **5** أطفال[34]، الأمر الذي يدفعنا استخلاص جملة من الملاحظات منها ارتفاع نسبة الولادات بين سكان بلاد المغرب القديم مثلما يؤكده كذلك نص نقيشة (أوغيليا ميموزا– Aurelia Mimosa) من (مداوروش – Madauros) – بالشرق الجزائري–، التي ذكر زوجها أنها عرفت ولادات متعددة (et quae fecundo partu)[35]، و(صبينا – Sabina) من مدينة (دوقة) التي أشار إليها زوجها بأنها كانت إمرأة ولودة (fecunda subolis...)[36]،والشأن نفسه لـ:(سوربيكا فكتوريا– Sulpicia Victoria)من مدينة (أوزيا-Auzia) سور الغزلان–[37]، التي ماتت وتركت بعدها **10** أولاد .

لم تسلم المرأة من الموت المبكر والمفاجئ أثناء الولادة مثلما ورد إلينا ضمن محتوى نص نقيشة (قرطاجة)[38] للأم (بكوت – Beccut) من (مكثاريس)التي ماتت أثناء ولادة طفلها الوحيد الذي تركته لزوجها[39]، ثم تتساءل هذه الأم ولسان حالها يقول:هل سيعيش مولودها بدلها؟، وبالتالي يرجح في مثل هذه الحالات أن الظروف الصحية اثناء الولادة لم تكن بالشكل المطلوب للحفاظ على أرواح المواليد الجدد، وحتى أرواح أمهاتهن، إذ تكررت مثل هذه الحوادث في العديد من مدن بلاد المغرب القديم .

والمتأمل في هذا النوع من المصادر الأثرية، يلاحظ أن المرأة كانت أثناء فترة الاحتلال الروماني العمود الفقري للمجتمع المغاربي القديم، ودورها لا يستهان به، فكانت ادوارها الأساسية التي كانت تقوم بها من تربية الأطفال، ورعاية شؤون بيتها، ومشاركة زوجها ماديا، وممارستها لوظائف في السلك الكهنوتي ، فهذا النوع

من المصادر يعطي لنا صور إيجابية عن حياتها داخل مجتمعات مدن بلاد المغرب القديم.

الهوامش :

1) Benabdallah(z.), Carande(R.) , Fernandez(C.), Gomez Pallarés(J.), Jorba(N.), Carmina latina inédita Ammaedarae,in ZPE , 152, 2005, pp 96-98
2) Hamdoune (Chr.), vie , Mort, et Poésie dans l'Afrique romaine d'après un choix de Carmina Latina Épigraphique , éd, Latomus – Bruxelles, n° 1, 2011,pp16-17
3) Ibid, pp16-17 : (…Castra fides mentis semper seruata marito
…. Te doluit genus omne tum , te cunctae pudicae…)
4) Ibid , pp16-17.
5) PIKHAUS(D),Répertoire des inscriptions latines versifiées de l'Afrique romaine, I, Tripolitaine , Byzacene, Afrique Proconsulaire, Bruxelles, 1994,B10 (…. eius semper meminisse , fratres, uestris precibusque.)
6) حليمة غازي ، نقائش لاتينية لماوريطانيا التنكية ، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ، 2011، رقم 498 ، ص 331
7) G.WILMANNS,Th.MOMMSEN, Corpus Inscriptionum Latinarum ,VIII , (= CIL,VIII) , Berlin , 1881, n° 11787
8) Ibid , 16159(…bona mater, bona coniunx…)
9) Ibid , 21275 (…Coniunx hic Blandi……Vnum equidem doleo , liqui quod pignore uitam insociata uiro , spem mea mors rapuit. At precor oconiunx, nostri semper memo resto…)
10) هي آلهة الاسلاف
11) CIL , VIII , 13134
12) Hamdoune (Chr.), op.cit, p 89
13) Ferchiou (N.), Recherches préliminaires sur les mausolées de la région de Kasserine , actes du 1er colloque sur l'histoire des hautes steppes tunisiennes , Tunis , 2001, p 7-22
14) على بعد 20 كلم جنوب مدينة (القصرين-Thélepte)

15) Guérin (V), voyage archéologique dans la régence de Tunis , Paris, 1862 , pp 288-290 ; Hamdoune(Chr.), op.cit pp25-26
16) (Vars(Ch.), Inscriptions inédites de la province de Constantine, Revue de la société d'archéologie de Constantine(= R.S.A.C.), n° 28, 1894, pp655-656.(… feci de paupere ditem…)
17) CIL, VIII, 11514
18) Lassére(J.M.), Recherches sur la chronologie des épitaphes païennes de l'africa , antiquités africaines (=Ant Afr), n° 7, 1977, p133.
19) Marrou ,(H.I), Epitaphe chrétienne d'Hippone à réminiscences virgiliennes, libyca, arch-epig, I, 1953, pp222- 230.(…Iam matura biro , iam plenis nubilis annis….)
20) CIL,VIII, 11514
21) Hamdoune (Chr.), op.cit, p 41
22) Le Bohec (Y.), Inscriptions juives et judaisantes de l'Afrique romaine , Ant. Afr, 17, 1981, p141 ; Ladjimi Sebai (L), La Plus singulière des morts singulières , Africa, 16, 1998, pp 75-80.
23) C I L , VIII , 7604
24) Hamdoune, (Chr.), op.cit, p 213
25) لم يرد بالنص اسم المعبود الذي كانت ترعاه، غير أن وجود إشارة لخدمتها بالمعبد بالمعبد طيلة فترة عملها وهي حافية الرجلين تذكرنا بالعادة التي عرفها سكان (تبوربو مايوس) الذين يدخلون حفاة لمعبد (اسكولابيوس). ينظر: Hamdoune (Chr.), op.cit, p215
26) Augusta-Barlot(S.), Bousbaa(M.), Inscriptions récemment découvertes à Cherchel, BCTH , n° S , 24, 1993-1995, pp108-114
27) Leveau (Ph.), Caesarea de maurétanie . Une ville romaine et ses campagnes, école française de Rome, Rome, 1984, p117 ; Lassére(J-M.), Ubique populus ,Peuplement et mouvements de population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des sévères (146a.c.-235 p.c), éd , CNRS, Paris , 1977, p241
28) Hamdoune (Chr.), op.cit, p272
29) Ibid, p 272

30) Ibid, p272

31) حليمة غازي ، المرجع السابق ، رقم 415، ص 305

32) Nilson (M.P.), Àpropos d'une inscription de Mactar ,Eranos, 46, 1948, pp159-161.

33) Hamdoune (Chr.), op.cit, p113

34) Ibid, p272

35) GSELL (S), Inscriptions latines d'Algerie, I, (=ilalg.1) , Paris, 1922, n° 2242

36) iltun,1448

37) CIL ,VIII, 9162

38) CIL , VIII, 24734

39) Hamdoune (Chr.), op.cit, p61